دار الحديث العراقية

تفسير

سورة التكوير

الشيخ الدكتور
ماهر بن ياسين الفحل
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

أمّا بعد :

موعدُنا اليوم مع تفسير سورة ((إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)) بهذا سمّاها البخاريُّ في صحيحه ، والترمذي في جامعه ، وكذا جاء في حديث ابْنِ عُمَرَ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ : إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)) ، وهو من باب تسمية السورة بإحدى آياتها .

وتسمى بـ((سورة التكوير)) كما هو في أغلب المصاحب وكتب التفسير .

وهي تسع وعشرون آية

وهي مكية في تسع وعشرين آية ومئة وأربع كلمات وأربعمئة وأربعة وثلاثون حرفاً .

والسورة فصلان : الأول في الكلام عن مقدمات يوم القيامة وهولِ أعلامه وحساب الناس فيه ومصائرهم، والثاني في الكلام عن توكيد صدق ما أخبر به النبي صلّى الله عليه وسلّم من صلته بوحي الله وملكه ونفي الجنون عنه ونفي صلةِ الشيطان به . والفصلان على اختلاف موضوعيهما غير منفصلين عن بعضهما ، إذ النجاة يوم القيامة باتباع القرآن في الدنيا .

قال البقاعي : ((مقصودها التهديد الشديد بيوم الوعيد الذي هو محط الرحال، لكونه أعظمَ مقام لظهور الجلال، لمن كذب بأن هذا القرآن تذكرة لمن ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة))

قال الرازي : ((اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ اثْنَيْ عَشَرَ شَيْئًا، وَقَالَ)): إِذَا وَقَعَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ فَهُنَالِكَ ((عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)) .

وهذه السورة بليغة جداً وجميع السور بليغة بليغةٌ آياتها ، لكن البلاغة هنا جاءت من وجه ، وهو الاطناب فـ(إذا) ظرف لما يستقبل من الزمن ، وقد تكرر فكان إطناباً ؛ لأنَّه لا يمكن أن يكتفى

بأداة واحدة لمطلع السورة فكان التكرار من البلاغة فهو يشعر المتدبر أنَّ كلَّ حدث خبرٌ مستقلٌ له هيبتُهُ ووقعه وتأثيره ، وكل حدث جدير بالاهتمام والعناية والتفكير بما فيه ، وفيه تشويق إذا كان الكلام متسلسلاً بعد اثنتي عشرة آية مصدرة بـ(إذا) يأتي الجواب بتحصيل حال عمل الإنسان : ((عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)) ومن مقاصد البلاغة في هذا الاطناب التخويفُ ؛ لأنَّ في السياق ذكرَ حوادث من جلائل الأمور تأتي هائلةً سريعةً ، وكأنَّها مشاهدُ متلاحقةٌ ، قال ابن القيم علينا وعليه رحمة الله قرأ قارىء ((إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإذا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإذا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)) وفي الحاضرين أبو الوفاء بن عقيل فقال له قائل : يا سيدي هبْ أنَّه أنشر الموتى للبعث والحساب وزوج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب فلمَ هدمَ الأبنيةَ وسيّرَ الجبالَ ودكَ الأرضَ وفطرَ السماءَ ونثرَ النجومَ وكورَ الشمسَ ؟ فقال : ((إنَّما بني لهم الدار للسكنى والتمتع وجعلها وجعلَ ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم من الدار خربها لانتقال الساكن منها فأراد أنْ يُعلمهم بأنَّ الكونين كانتْ معمورةً بهم ، وفي إحالة الأحوال وإظهار تلك الأهوال وبيان المقدرة بعد بيان العزة وتكذيب لأهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان فيعلم الذين كفروا أنَّهم كانوا كاذبين فإذا رأوا آلهتهم قد انهدمت وأنَّ معبوداتهم قد انتثرت وانفطرت ومحالُّها قد تشققت، ظهرت فضائحهم وتبين كذبهم وظهر أنَّ العالم مربوبٌ محدثٌ مدبرٌ له ربٌ يصرفُهُ كيف يشاء تكذيباً لملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم قال ابن القيم : فكم لله تعالى من حكمة في هدم هذه الدار ودلالة على عظم عزته وقدرته وسلطانه وانفراده بالربوبية وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذعانها لمشيئته فتبارك الله رب العالمين)) .

فقوله تعالى : ((إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)) أي : ذهب ضوؤها واظلمت ، فالشمسُ في يوم القيامة تظلمُ بعد أنْ كانت ضياءً وتنطفيء بعد أنْ كانت سراجاً وهاجاً وتتوقف عن حركتها التي كانت تسير بها بمقدار دقيق .

وقوله : ((وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَت)) والنجومُ الآن زينةٌ للسماء فيوم القيامة تنكدر ويذهب ضوئها .

وقوله : ((وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَت)) والجبال قد جعلها الله أوتاداً للأرض ، وهي راسيةٌ راسخةٌ في الأرض له جذرٌ وهي رمز القوة والثبات ، ففي ذلك اليوم الذي يأذن الله فيه بخراب العالم تصير الجبال كالقطن في خفته وكالسحاب في مروره .

وقوله : ((وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَت)) وهي النوقُ الحواملُ ؛ إذ إنَّ الناقة الحامل إذا دخلت في شهرها العاشر تسمى ((عُشَراء)) حتى تلد ، والنوق هي أغلى الأنعام لحد الآن ، وكان في السابق لها دور أكبر بسبب النقل وتحمل العطش ، وهي تجمع اللحم والظهر واللبن والوبر والولد .

وفي ذلك اليوم تعطل العشار بمعنى تترك مهملة بلا راع ولا حلب ولا يلتفت إليها لأن الناس مشغولون لكل امريء منهم يومئذ شأن يغنيه .

وقوله تعالى : ((وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَت)) الوحوش جمع وحش وهو الحيوان المفترس ، و(حُشِرَت) معناه جمعت فأميتت ولشدة الهول زال توحشها قبل موتها حين جمعها .

وقوله : ((وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَت)) وتفجيرُها بإعادتها إلى عناصرها الأولية ثم إحداث الانفجار بعد أن ملئت وفاضت وسالت كما وصفها الله ((وإذا البحار فجرت)).

والتشديد في مثل هذه الأفعال يكون لتكثير الفعل وتكريره ، والتخفيف يحتمل القليل والكثير.

وهذه ست آيات في آخر الدنيا عند أحداث النهاية ثم انتقل السياق إلى بدايات الدار الآخرة بعد بعث الناس من قبورهم عسى الله أن يبعثنا وإياكم إلى خير وعلى خير ، فقال تعالى : ((وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَت)) .

فقوله تعالى : ((وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ)) أي : حشرَ كلُّ نظيرٍ إلى نظيره ، وكلُّ مثل إلى مثله ، فيحشر الأخيار مع الأخيار ، والأشرار مع الأشرار ، والإنسان يسعى في دنياه للصحبة الصالحة مصبراً نفسه كما قال تعالى : ((وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)) فالصحبةُ الصالحةُ مهمةٌ في الدنيا والآخرة ، والإنسانُ يُحشرُ مع قرنائه وأخلائه ، قال تعالى : ((هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)) فأصدقاءُ السوء يحشرون معاً في حالٍ سيئةٍ متباغضين ليزدادَ حزنُهم بسببِ تضرر كلِّ واحدٍ منهم بصاحبِهِ ،

والأخيارُ يُحشرونَ معاً متحابين متآلفين حتى في عرصات يوم القيامة . أصدقاءُ السوء تأكلُ الحسرةُ قلوبَهم يومَ القيامة ((وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلً))

يومُ القيامةِ كلُّ نفسٍ مثقلةٌ بحملها وجاءتْ مواقعُ التواصلِ ؛ ليحملَ المرءُ إثمه ومن أوزار غيره في حياته وبعد مماته ، فالحذر الحذر من سيئة تبقى .

اختر اصدقائك الذين لا يكونون أعدائكَ يوم القيامة قال ابن كثير : ((كُلُّ صَدَاقَةٍ وَصَحَابَةٍ لِغَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّهَا تَنْقَلِبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَدَاوَةً إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ دَائِمٌ بِدَوَامِه))

ثم قال تعالى : ((وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ)) آيةٌ عظيمةٌ وتخويفٌ كبيرٌ من العلي القهار لتحذير العباد من ازهاق النفوس ؛ إذ إنَّ جريمةَ القتل منْ أعظم الجرائم ، وورطةٌ من أكبر الورطات وهو أمرٌ لخطورته فلا يسألُ القاتلُ فحسبْ ، بل المقتول أيضاً كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((إِذَا التَقَى المسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمقْتُولُ فِي النَّارِ))، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المقْتُولِ قَالَ : ((إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ)) أخرجه البخاري من حديث أبي بكرة ، وكذلك المحرض والراضي والساكت والمؤيد .

فالموؤدة وهي الطفلة الصغيرة التي كانت تدفن وهي صغيرة تسأل يوم القيامة عن سبب دفنها وهذا السؤال نظير سؤال الله لعيسى كما قال تعالى : ((وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)) فمنْ سفكَ الدمَ الحرامَ يواجِه يومَ القيامة قولَه تعالى : ((وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا)) .من مظاهر العدل يوم القيامة إقامةُ موازين القسط ورد الحقوق إلى أصحابها والاقتصاص للمظلومين من الظالمين .كلما شاهدتَ الظالمين استعْدوا على المستضعفين فاستذكر تخاصمهم يوم الدين قال تعالى: ((إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا)) وما أقبحَ الظالمَ إذا كان ذَنَباً لظالم آخرَ من أكابر المجرمين، وأقبحْ

به إذا كان يَسومُ قومَهُ وبني جلدتَهُ العذابَ والنَّكالَ ليُرضي ظالماً لا حظَ له من الحياة إلا الفسادَ والدمارَ، لكنْ منْ رحمةِ اللهِ أنَّ الله جعلَ للعباد معاداً يُنصفُ فيه المظلومون مهما كانتِ المظلمةُ صغيرةً وأينما كانتْ قال الله تعالى حاكياً عن لقمان : ((يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَل فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)) وقال تعالى: ((وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِين)) إذا تأملتَ هذا أدركت أنَّ الجزاءَ والقصاصَ والحسابَ يومَ القيامة من عدل الله ، ومن رحمته بعباده وهو تناسقُ ما تردده في صلاتك كل يوم: ((الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)) فمن رحمته أنَّه جعل للعباد معاداً يفصل فيه ويقتص فيه من الظالم للمظلوم ، وقد جاء هذا المعنى ظاهراً في سورة الأنعام .

يومُ القيامةِ يومٌ ينتصف المظلومُ منَ الظالم , ولولا ذلك اليوم لاختل نظام الكون ولشعر الإنسان أنَّه مظلومٌ بأصل خلقه فالإعادة من رحمة الله كما أننا نذكر ذلك اليوم بعد قولنا في الصلاة : ((الرحمن الرحيم)) .

قاتل المسلم مهما فرَّ في هذه الدنيا، فإنَّه لن يفلت يوم القيامة، ولن يتركه المقتول يوم القيامة استعد الآن للقائك ربك يوم القيامة وتأمل الآيات كقوله تعالى : ((وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ)).وقوله : ((وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ)).وقوله: ((ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ)) وقوله : ((الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ)) ، وقوله : ((وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ)) .

((وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَت)) في ذلك اليوم ينطق من لم يكن ينطق ويُبين من لم يكن يبين فالمظلومون في الدنيا الذين لم يأخذوا حقهم يمكنهم البوح يوم القيامة بشكواهم ويقتص لهم بالعدل . وفي هذا السؤال تبكيت للوائد والقاتل على فساده وظلمه .

ثم تأمل السياق : ((بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)) فيه تشنيع لفعل الوائد ؛ إذ إنَّه قتل البراءة في مهدها ، وهي لم تقترف ذنباً .

فالموؤدةُ قتيلةٌ تظهر على مسرح الحساب والقصاص ، هي وقاتلها في موقف المحاكمة .

(قَالَ الشَّافِعِيُّ) : كَانَ بَعْضُ الْعَرَبِ تَقْتُلُ الْإِنَاثَ مِنْ وَلَدِهَا صِغَارًا خَوْفَ الْعَيْلَةِ عَلَيْهِمْ، وَالْعَارِ بِهِمْ فَلَمَّا نَهَى اللَّهُ عَزَّ ذِكْرُهُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَوْلَادِ الْمُشْرِكِينَ دَلَّ عَلَى تَثْبِيتِ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ أَطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَكَذَلِكَ دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ مَعَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ مِنْ تَحْرِيمِ الْقَتْلِ بِغَيْرِ حَقٍّ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: ١٤٠] الْآيَةَ (قَالَ الشَّافِعِيُّ) وَأَخْبَرَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ عَمْرٍو النَّخَعِيِّ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَمْرٍو الشَّيْبَانِيَّ يَقُولُ سَمِعْتُ «ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ سَأَلْتُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَيُّ الْكَبَائِرِ أَكْبَرُ؟ فَقَالَ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ» .

ثم قال تعالى : ((وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)) وهي الكتب التي يستلم كل إنسان كتاب أعماله فآخذٌ كتابه بالشمال وآخذ كتابه باليمين قال تعالى : ((وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)) .

فقَوْلُهُ : ((وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)) قَالَ الضَّحَّاكُ : أُعْطِيَ كُلُّ إِنْسَانٍ صَحِيفَتَهُ بِيَمِينِهِ أَوْ بِشِمَالِهِ.
وَقَالَ قَتَادَةُ : ((صَحِيفَتُكَ يَا ابْنَ آدَمَ ، تُملي فِيهَا ، ثُمَّ تُطْوَى ، ثُمَّ تُنْشَرُ عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلْيَنْظُرْ رَجُلٌ مَاذَا يُمْلِي فِي صَحِيفَتِهِ)) .
ثم قال تعالى : ((وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ)) كشطت ، أي : أزيلت .

((وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَت)) فالنار موجودة الآن، والجحيم من أسمائها ، ويزاد في إيقادها يوم القيامة؛ فإذا دخلها الكفار لا يزادون إلا سعيراً .

وَقَوْلُهُ : ((وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ)) قَالَ السُّدِّيُّ : أُحْمِيَتْ . وَقَالَ قَتَادَةُ : أُوقِدَتْ . قَالَ : وَإِنَّمَا يُسَعِّرُهَا غَضَبُ اللَّهِ وَخَطَايَا بَنِي آدَمَ .

ولما ذكر دار الأعداء المجرمين البعداء ترهيباً أتبعه بذكر دار المقربين الأبرار ترغيباً وتكريماً فقال : ((وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ)) فذكر الجنة بعد النار من اتباع الترهيب بالترغيب ، والجنة تقرب للمتقين إكراماً لهم ، كما قال تعالى : ((وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ)) وقال تعالى : ((يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ)) .

ومعنى أزلفت ، أي قربت من المؤمنين ونعمت ببرد العيش وطيب المستقر

قال تعالى : ((عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ)) بمعنى : علمت كل نفس ما أحضرت من الأعمال في كتابها ، وهو ما قدمت وأخرت كما قال تعالى : ((عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)) . وعلى هذا وجب على كل نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هي التي علمت ما أحضرت

وبعد ذكر هذه الأحوال والأهوال يتخايل التفكير بالإنسان ، ما النجاة فيما ينتظر الإنسان ، والجواب هو بالاعتصام بالكتاب ؛ إذ انتقل السياق إلى روح السؤال والجواب فقال تعالى : ((فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ)) وهو قسم مؤكد من الله الجليل بجلائل المخلوقات التي تدل على عظمة الخالق، فقد أقسم الله بالكواكب السيارة التي ترى في الليل وتخنس في النهار . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ

ثم أقسم الله بالليل الذي هو محل ظهور النجوم وزوال خنوسها وذهاب كنوسها فقال تعالى : ((وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)) قسم بالليل حال كونه عَسْعَس وهي حالة تشمل الإقبال والإدبار لتدل على طول الليل .

ومنه العسس، وهم حراس الليل من الجنود، يعسّون فى الطرقات

نقل القرطبي عن الخليل وغيره: عَسْعَسَ اللَّيْلُ إِذَا أَقْبَلَ أَوْ أَدْبَرَ. الْمُبَرِّدُ: هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شي وَاحِدٍ، وَهُوَ ابْتِدَاءُ الظَّلَامِ فِي أَوَّلِهِ، وَإِدْبَارُهُ فِي آخِرِهِ

ثم قال تعالى : ((وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّس)) وهذا قسمٌ بوقت الصبح وهو آيةٌ من آيات الله ، والمقصود به شروقه ، والتعبير بالتنفس يوحي بالحياة والجدية كأنَّه مخلوقٌ حيٌّ خرج إلى الدنيا ينبغي العناية به كمال روى ابن الجوزي في كتاب حفظ العمر بإسناده إلى الْحَسَنِ، أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ يومٌ يَأْتِي مِنْ أَيَّامِ الدنيا إلا يتكلم ويقول: يا أيها النَّاسُ إِنِّي يومٌ جديدٌ، وَأَنَا عَلَى مَا يُعْمَلُ فِيَّ شَهِيدٌ، وَإِنِّي لَوْ قَدْ أَفَلَتْ شَمْسِي لَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ: أَحَدَهُمْ لَوْ سَقَطَ مِنْهُ دِرْهَمٌ لَظَلَّ يَوْمَهُ يَقُولُ: إِنَّا للَّهِ!! ذَهَبَ دِرْهَمِي، وَهُوَ يُذْهِبُ يَوْمَهُ؛ وَلا يَقُولُ: ذَهَبَ يَوْمِي مَا عَمِلْتُ فِيهِ. فكل صبح جديد ينبغي أن تحيي به يوماً جديداً فتتزود به إلى المعاد بالعمل الصالح .

«وَالصُّبْحِ إذا تَنَفَّسَ» معطوف على قوله تعالى: «وَاللَّيْلِ إذا عَسْعَسَ» وتنفس الصبح، ظهوره، ودبيب الحياة فيه.

وفى التعبير عن ظهور الصبح بالتنفس، إشارة إلى أنه مُولدٌ حياةً للأحياء جميعها، حيثُ تُبعث الحياةُ من جديد فى الأحياء ، مع الصباح ، بعد أنْ غَشيها النوم ، وحبسها عن الحركة ، فبدتْ وكأنَّها فى عالم الموتى.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ» (٦٠: الأنعام)

قال الماتريدي : ((الأشياء التي وقع بها القسم تقتضي أحكاما ثلاثة.

أحدها: ما من شيء خلقه الله – تعالى – إلا وفيه دليلُ وحدانيته، وآية ربوبيته، إذا أنعم النظر فيه، ويُثبتُ علمَه وحكمته، ويدلُ على قدرته وسلطانه، وفي تثبيت القدرة والسلطان إيجاب القول بالبعث ، وإيجاب القول بالرسل ، ونهيٌ عن عبادة غير الله ، فلو أنعموا النظر فيها وتفكروا في أمرها، لأداهم ذلك إلى القول بالبعث ، ودعاهم إلى وحدانية الرب والإقرار بالرسل ؛ فلا يَدّعون أنَّ معه آلهة أخرى، ولا كانوا ينكرون البعث))

ثم جاء جواب القسم : ((إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)) أي : القرآن الكريم ، وجبريل هو المبلغ عن ربه فنال الشرف العظيم لحمل كلام ربه ليُستحثَ الخلق على خدمة القرآن الكريم الذي هو الشرف الأكبر ، أي إن هذا القرآن الكريم، لكلامُ الله المنزَّل بواسطة ملك عزيز على الله هو جبريل وقد وصف الله رسوله جبريل بست صفات :

الأولى : وصفه بأنه رسول والله يصطفي من الملائكة رسلاً ويصطفي من الناس رسلاً .

الثاني : وصفه بأنه كريم ، والكريم هو الذي جمع صفات الفضل ، وأيُّ فضل أعظم من تبليغ وحي الله .

الثالث : وصفه الله بالقوة فلجبريل ستمئة جناح وقد أهلك الله به أمماً كاملة .

الرابع : أنه صاحب مكانة عند ربه ، وأيُّ مكانة أعظم من أن يكون رسولاً لرب العالمين ، ومؤتمن على وحيه .

الخامس : وصفه الله تعالى بأنه مطاع فهو مطاع عند الملائكة .

السادس : وصفه الله بالأمانة فهو أمين بما كلفه الله لا يزيد ولا ينقص ولا يخل بشيء .

فما أسعد من زكّاه خالقه ، وتأمل تلكم الآيات ((إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)) ومعلوم لكل مسلم أنَّ الإيمان بالملائكة من أركان الإيمان ، وفي معرفة الملائكة على ما جاء في الكتاب والسنة ثمرات نافعة منها :

١ – العلم بعظمة خالقهم عز وجل وكمال قدرته وسلطانه ، فروعة الخلق تدل على عظمة الخالق .

٢ – شكر الله تعالى على لطفه وعنايته بعباده حيث وكل بهم من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم وكتابة أعمالهم وتبليغ الوحي وغير ذلك مما تتحقق به مصالحهم في الدنيا والآخرة.

٣ – محبة الملائكة على ما هداهم الله إليه من تحقيق عبادة الله على الوجه الأكمل ونصرتهم للمؤمنين واستغفارهم لهم.

وليراجع شرحنا للحديث الثامن عشر بعد الثلاثمئة من شرح صحيح البخاري علينا وعليه رحمة الله .

((إِنَّهُ)) أَيْ : الْقُرْآن ((لَقَوْل رَسُول كَرِيم)) عَلَى اللَّه تَعَالَى وَهُوَ جِبْرِيل أُضِيفَ إِلَيْهِ لِنُزُولِهِ به .
{ثَمَّ} بفتح المثلثة: ظرف مكان؛ لما قبله؛ أي: مطاع هناك؛ أي: في السموات، و لما بعده؛ أي: مؤتمن عند الله تعالى على وحيه ورسالاته إلى أنبيائه، فيكون إشارةً إلى عند ذي العرش؛ أي: أمين عند ذي العرش جل وعلا.

وبعد أنْ ذكر الله الرسول الملكي ذكر الرسول البشري ليدلل على عظمة سند القرآن ، وليكون في ذلك حثٌّ على أن نقدم لأنفسنا خدمة مع كتاب الله ، فقال تعالى : ((وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ)) فهذه تزكيةٌ لسيدنا رسول الله محمدٍ على الصلاة والسلام ، وقد وصفه الله لنا بهذا الوصف : ((صَاحِبُكُمْ)) إمعاناً في تزكيته ومعرفته وأنَّه منا ومن بيننا نعرف نسبه وسيرته وأخلاقه، وفيه تهييج وجلب لإيمان الناس فهو بشر ، وفي ذلك تشريف للبشر أن يبعث الله رسولاً منهم.
((وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ)) أي : رأي النبي محمد صلى الله عليه وسلم جبريل ، بمعنى أنَّ الرسول البشري رأى الرسول الملكي في الأفق البين الواضح في صورته التي خلق عليها ، وله ستمئة جناح ، وقد سد الأفق ، وقد رآه مرة ثانية ليلة الإسراء في السماء وهذا ما أخبر الله عنه بقوله: ((وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى)) .
ثم قال تعالى : ((وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ)) وهذه تزكية عظيمة لرسول الله يحرص المؤمن أن يتابع النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الصفة ، وهي أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ضنيناً بالوحي أي : لم يكن بخيلاً ، بل كان يذكر الناس بالوحي كي لا تبسل نفس بما اقترفت من الذنوب ، بل هو حريص على أن يكون كل من أمته عالماً بكل ما أمره الله تعالى بتبليغه.
وقرىء: بضنين، بظنين، أي بمتهم.. أي ليس النبي- صلوات الله وسلامه عليه- بمتهم فيما يبلغ من آيات ربه.

((وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)) فالوحي الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بقول الشياطين ولا ينبغي لهم ولا يستطيعون بل هو وحيٌ أوحاه الله على قلب النبي صلى الله

عليه وسلم فالموكلُ بالوحي من الله تعالى إلى رسله عليهم الصلاة والسلام وهو جبريل عليه السلام ، قال تعالى: ((نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)) وهو أفضل الملائكة وأكرمهم على الله ، وقد وصفه الله بالقوة والأمانة على تأدية مهمته.

((وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)) أي : ما القرآن الذي جاء به محمد إلى البشرية جمعاء ((بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)) أي : مرجوم ، أي : ملعون ولكنه كلام الله ووحيه .

ثم قال تعالى : ((فَأَيْنَ تَذْهَبُون)) وهذه آيةٌ عظيمةٌ فيمن صد عن الحق وأعرض عنه ، فإذا ترك الإنسان كلام ربه فأيُّ شيءٍ سينفعه ، وإذا أدبر الإنسان وتولى عن الحق فمن أين سيهتدي .

((فأين تذهبون)) فأيَّ طريقٍ تَسلكون أبينَ من هذه الطَّريقة التي قد بُيِّنت لكم؟

قال ابن كثير : ((وَقَوْلُهُ : ((فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)) ؟ أَيْ : فَأَيْنَ تَذْهَبُ عُقُولُكُمْ فِي تَكْذِيبِكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، مَعَ ظُهُورِهِ وَوُضُوحِهِ ، وَبَيَانِ كَوْنِهِ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، كَمَا قَالَ الصِّدِّيقُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، لِوَفْدِ بَنِي حَنِيفَةَ حِينَ قَدِمُوا مُسْلِمِينَ ، وَأَمَرَهُمْ فَتَلَوْا عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ قُرْآنِ مُسَيْلِمَةَ الَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الْهَذَيَانِ وَالرَّكَاكَةِ ، فَقَالَ : وَيْحَكُمْ ، أَيْنَ يُذهَب بِعُقُولِكُمْ ؟ وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ إِلٍّ، أَيْ : مِنْ إِلَهٍ . وَقَالَ قَتَادَةُ: {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} أَيْ: عَنْ كِتَابِ اللَّهِ وَعَنْ طَاعَتِهِ)) .

ثم قال تعالى مبيِّناً عظمة القرآن : ((إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين)) فهو شرف وذكر عظيم يذكر بالله وبأمره ونهيه وبجنته وناره ورحمته وعذابه ، وهو ذكرٌ للعالمين أجمعين بإنسهم وجنهم .

: ((لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيم)) فالقرآن كتاب هدى لجميع الناس لكن الذين يهتدون به هم الذين أرادوا الرشد فالقرآن إنما يتعظ به من استقام على الحق .

قال ابن كثير : ((مَنْ أَرَادَ الْهِدَايَةَ فَعَلَيْهِ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ منجاةٌ لَهُ وَهِدَايَةٌ ، وَلَا هِدَايَةَ فِيمَا سِوَاهُ)) .

ومن أراد الهداية وسعى بإسبابها فإنَّ الله يهديه أخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً "

فقوله ((لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيم)) أي يتحرى الاستقامة وملازمة الصواب

ثم قال تعالى : ((وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِين)) فالإنسان له مشيئته الخاصة ، لكن الله له المشيئة المطلقة لأنه رب العوالم فلا يقع في ملكه إلا ما يشاء .

قال البقاعي : ((ولما وصف نفسه سبحانه بأنه لا يخرج شيء عن أمره، أتبع ذلك الوصف بما هو كالعلة لذلك فقال: { رَبُّ الْعَالَمِين} أي الموجد لهم والمالك والمحسن إليهم والمربي لهم وهو أعلم بهم منهم، فلأجل ذلك لا يقدرون إلا على ما قدرهم عليه، ويجب على كل منهم طاعته والإقبال بالكلية عليه سبحانه وتعالى وشكره استمطاراً للزيادة، فلهذه الربوبية صح تصرفه في الشمس وما تبعها مما ذكر))